من صور
الحمل على اللفظ والمعنى
في القرآن الكريم

دكتور
رمضان محمود محمد حمد
مدرس أصول اللغة بقسم اللغة العربية
وآدابها بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبع دينه إلى يوم الدين وبعد،،

فإن القرآن الكريم وهو كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1]. وقد التف الناس حول القرآن التفاف السوار بالمعصم لما فيه من جمال المعنى وبلاغة الألفاظ وروعة الأسلوب.

هذا وقد تعددت البحوث القرآنية، وامتلأت المكتبات الإسلامية بالروائع الإيمانية التى توضح عظمة القرآن، وتجلى معانيه للناس، وكل إنسان يكتب على قدر ما آتاه الله من علم وحكمة، وعجائب القرآن لا تنتهى إلى قيام الساعة فسبحان من هذا كلامه.

واليوم أردت بمشيئة الله أن أضيف إلى البحوث القرآنية بحثًا فى موضوع «من صور الحمل على اللفظ والمعنى فى القرآن الكريم» وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، تكلمت فى المقدمة عن عظمة القرآن ومكانته العالية، وتحدثت فى التمهيد عن

(١) الحجر/ ٩.

العلاقة بين اللفظ والمعنى، ومعنى الحمل على المعنى واللفظ عند العلماء، ثم تحدثت فى الفصل الأول عن الإفراد والتثنية والجمع من خلال الحمل على اللفظ والمعنى فى القرآن الكريم، وتحدثت فى الفصل الثانى عن التذكير والتأنيث من خلال الحمل على اللفظ والمعنى فى القرآن الكريم، وكذلك فى الفصل الثالث تحدثت عن التضمين فى اللغة والنحو، وأما الخاتمة فقد كتبت فيها أهم نتائج البحث.

هذا هو عملى وهو جهد المقل، فإن كنت قد وفقت فمن فضل الله تعالى، وإن كانت الأخرى فحسبى أننى بشر أصيب وأخطئ فالكمال لله وحده، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

تمهيد:

العلاقة بين اللفظ والمعنى:

العلاقة بين الألفاظ والمعانى شغلت العلماء القدماء كثيراً واجتهدوا فى بيان أيهما أهم: اللفظ أم المعنى؟

ولقد لفتت هذه القضية نظر الجاحظ الذى ربما كان من أول من أولى هذه القضية اهتماما كبيراً، وقد ابتلى الجاحظ بعدد من الباحثين الذين أساءوا إليه ظانين أنه كان من أنصار اللفظ على حساب المعنى وهم فى بحوثهم سرعان ما يوردون قوله المشهور: «والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[1]. للتمثيل على فكرتهم الخاطئة تلك، ولو أمعنوا النظر فى هذا القول الدقيق لتبينوا خطأ ما وقعوا فيه لقد استرعى انتباههم أول القول وفاتهم ما يدل عليه سياقه التام، وإلا فما الذى يعنيه الجاحظ بقوله «فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير». وقول الجاحظ هذا يؤكد أن الشأن فى صناعة الكلام عنده إنما يقوم على السبك والصياغة التى تجمع بين الألفاظ.

وقد تابع الجاحظ فى مناقشة قضية اللفظ والمعنى كثيرون منهم من أخذ برأيه، ومنهم من اهتم بجانب اللفظ وحده، ومن هؤلاء ابن قتيبة

---

(١) الحيوان للجاحظ / ١٣٠ ت / عبد السلام هارون مطبعة البابى الحلبى ط ٢/ ١٩٦٥م.

الذى قسم الشعر فى كتابه (الشعر والشعراء) إلى أربعة أضرب ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه[1] أما ابن رشيق القيروانى فقد أشار إلى ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى حينما قال: «واللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم بعض المعنى، واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهجنة عليه»[2]. وقد رأى عبد القاهر أن اللفظ وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ، إنما من حيث دلالته يدور البحث فيه، وأن المعنى لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر فى الضمير، إنما من حيث إنه حمل فى لفظ يدور البحث فيه، وأن المعنى مقيد فى تحديده بالنظم الذى يؤدى به فلا يمكن أن يتخلف النظمان، ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد[3].

والألفاظ عند عبد القاهر رموز للمعانى المفردة التى تدل عليها هذه الرموز أو مجرد علامات للإشارة إلى شىء ما، وليست للدلالة على حقيقته، والإنسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولا، ثم يعرف هذا اللفظ الذى يدل عليه ثانيًا[4].

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة / ٦٤، ٦٥، ت / أحمد محمد شاكر ط/ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.

(٢) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى / ١٢٤ ت / محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ط ٢ ١٩٥٥م.

(٣) عبد القاهر الجرجانى بلاغته ونقده د/ أحمد مطلوب/ ٥ - ٢٤ بتصرف وكالة المطبوعات الكويت ط١/ ١٩٧٣م.

(٤) المرجع السابق/ ٩٨

ولذلك فإن الدلالة على حقيقة الشيء لا تكون إلا إذا نظمت تلك الألفاظ فى سياق معين، وتتلاحم الألفاظ والمعانى عند عبد القاهر فى أداء الدلالة المقصودة، لأن الألفاظ خدم المعانى، والمعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته؛ لأن الألفاظ ليست إلا سمات للمعانى، وأوضاعًا قد وضعت لتدل عليها، فليست لها كبير قيمة من غير تأليف(١).

وقد بدأ المحدثون من النقطة التى وصل إليها عبد القاهر، ونظريته فى النظم هى نفسها التى سماها المحدثون بعلم الصيغ أحد فروع علم اللسان فهم يرون أن «اللغة البشرية لا تقف عند استعمال الألفاظ المفردة، إذ تنتظم تلك الألفاظ مجموعات تختلف تبعًا للمعنى الذى تريد العبارة عنه وهى ما نسميه بالجمل، وجمع الكلمات فى جمل، تلك خاصية الإنسان، ومن الواجب أن تؤلف تلك الجمل تبعًا لطرق تحددها طبيعة كل لغة، وتلك الطرق هى ما سميناه سابقًا بعوامل الصيغة، وعوامل الصيغة يمكن أن تكون إما صوتًا خاصًا، وإما نظمًا محددًا للكلمات، وهاتان الوسيلتان مختلفتان من ناحية الشكل، ولكنهما فى النهاية يؤديان الغرض ذاته، ومن ثم كان هناك مجال لجمعهما فى باب واحد من علم اللسان هو باب النحو ويعتبر أدق علم الصيغ»(١).

---

(١) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده/ ٩٨.

(٢) مقال منهج البحث فى الأدب واللغة للأستاذ/ أنطوان ماييه مترجم وملحق فى كتاب النقد المنهجى عند العرب د/ محمد مندور/ ٤٤٥ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٩م.

والإضافة الجديدة فى هذا المجال هى أن الفصل بين الألفاظ ودلالتها المختلفة هو ضرب من المستحيل، وقد رأى الأستاذ أنطوان مايه فى بحثه عن ـ علم اللسان ـ أن التمييز بين الجمل المؤلفة فى مجموعة من الكلمات حسب قواعد النحو المقررة، وبين وظيفة تلك الصيغ المتكونة من جراء ذلك، إنما هو تمييز أحمق[1].

ثم اتسعت الدراسات بعد ذلك فى هذا المجال، واتجهت نحو التخصص والتحديد، وكتبت بحوث كثيرة حول مفهوم المعنى نفسه أو معنى المعنى[2].

ونتيجة لهذا التحديد والتخصيص فى الدراسة والبحث صار المعنى يشكل فرعًا خاصًا من فروع علم اللغة، هو ما يعرف بعلم الدلالة، وقد تحدث الدكتور كمال بشر عن هذا العلم الذى انفصل عن بقية الفروع اللغوية الأخرى، وعن مدى اتساع الرقعة التى يغطيها فى الدراسات اللغوية فقال: «إن فريقًا من الدارسين يرى أنه يدرس المعنى على مستوى اللفظة المفردة ـ كما تفعل المعجمات ـ وهذه نظرة ضيقة قنعت بالأمور السطحية، ولكن هناك فريقًا آخر يوسع فى دائرة هذا الحقل اللغوى فيجعله مشتملا على هذا الجانب التقليدى المذكور سابقًا وعلى دراسة المعنى ومشكلاته على مستوى التراكيب كذلك[3].

---

(١) المرجع السابق/ ٤٤٦.

(٢) دراسات فى علم اللغة د/ كمال محمد بشر القسم الثانى / ١٥٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

(٣) المرجع السابق/ ١٥٣، وما بعدها.

ولعل هذا هو الفرق الكبير بين الدراسات الحديثة، وبين الدراسات القديمة فى هذا المجال، فلم يعد كافيًا لفهم معنى ما نظرة عجلى فى معجم لغوى، بل لا بد من البحث عنه فى البيئة اللغوية التى قيل فيها المتكلم نفسه، ملامحه، نبرات صوته، طريقته فى نظم الكلمات، كلماته التى تفوه بها، وقد أطلق البحث الحديث على هذه الأمور مجتمعة اسم «المسرح اللغوى» وتقف وراء هذه الأمور أو توضحها، عدة فروع من علم اللغة، يساعد كل منها بنصيبه فى إظهار الدلالة، وعندما تتعاون وتتلاقى معطيات كل من علوم الأصوات والصرف والنحو والمعجم يتكون ما يمكن أن يسمى بالسياق اللغوى، ويمكن عندها أن نتوقع فهمًا لا بأس به لما يريد المتكلم أن يخبرنا به»[1].

ومن يتتبع البحوث الدائرة حول علاقة الألفاظ بمعانيها يرى أن الآراء تدور حول فكرتين أساسيتين: فبينما يرى البعض أن الارتباط قائم وطبيعى بين اللفظ ومعناه، أى أن لفظًا معينًا يثير معنى معينًا، أو أن المسمى يوحى باختيار الاسم له، يرى الفريق الآخر أن تلك الصلة غير طبيعية، وأنها مصطنعة يفرضها الإنسان بإرادته، وبحكم طول ملابسة اللفظ لدلالته ينمو ما يشبه التلازم، ولكن الإنسان يستطيع أن يمزق هذه الصلة، وأن يفرض أصواتًا جديدة للدلالة نفسها ولتعطى نفس المعنى[2].

---

(١) التطور الدلالى بين لغة الشعر ولغة القرآن/ عودة خليل أبو عودة/ ٧٣ ط مكتبة المنار الأردن ـ الزرقاء الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) شذرات من فقه اللغة والأصوات أ.د/ عبد الحليم محمد عبد الحليم/ ٧٣ دار الطباعة المحمدية الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

واختلف العلماء من قديم حول دلالة اللفظ على المعنى بذاته، أو بوضع الله أو الناس له، وكان لمفكرى اليونان والرومان[1] ومفكرى العرب[2] أيضًا وقفة عند هذه المشكلة وهم فريقان:

١ـ فريق يرى «أن الصلة بين الألفاظ والدلالة لا تعدو أن تكون صلة اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس.

٢ـ وفريق يربط بين الألفاظ ومدلولاتها ربطًا وثيقًا، ويجعلها سببا طبيعيًا للفهم والإدراك، فلا تؤدى الدلالة إلا به، ومن أجل هذا كانوا يطلقون على الصلة بين اللفظ ومدلوله «الصلة الطبيعية أو الذاتية» ونلحظ هذا الاتجاه من التفكير فيما يرويه أفلاطون فى محاوراته عن أستاذه سقراط الذى كان فيما يبدو يميل إلى هذا الرأى[3].

ولكن المفكرين اليونان والرومان القائلين بهذا الرأى لم يجدوا ما يسوغ وجهتهم فى اللغة اليونانية أو الرومانية بحيث لم يستطيعوا أن يثبتوا الصلة بين الألفاظ والمدلولات بأمثلة من الكلمات اللغوية عندهم لعدم ظهور ما تتحقق فيه تلك المناسبة، ومن هنا سوغوا وجهتهم بأن خفاء الربط بين الدلالة والأصوات ليس مرجعه عدم صحة تلك النظرية[4].

---

(١) من أسرار اللغة/ ١٢٦ ط ٣ ، ودلالة الألفاظ د/ أنيس / ٥٨.

(٢) المزهر ١/ ١٠ , ١١، ط صبيح، وفقه اللغة للمبارك/ ١٦٢.

(٣) دلالة الألفاظ / ٥٨، ٥٩.

(٤) العربية خصائصها وسماتها أ.د/ عبد الغفار هلال/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ط ٤/ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

بل إن الكلمة حين وضعت أولا وفى نشأتها كانت أصواتها وثيقة الصلة بمدلولها، ثم انحرفت عن هذا مع توالى الأيام، وأصبحنا لا نكاد ندرك تلك الصلة وقد مرت آلاف السنين أو ملايينها قبل أن يصل الكلام الإنسانى إلى اليونان والرومان على الصورة التى عرفت فى أيامهم[1].

ولكن يبدو أن علماء العرب الذين قالوا بالمناسبة بين اللفظ ومدلوله لم يكونوا كلهم على وفاق مع رأى علماء اليونان والرومان السابق فى كون تلك المناسبة طبيعية ذاتية، بل كان منهم من لا يرى ذلك ومن يراه، وينقل لنا العلماء أن الذى كان يقول بأن المناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله ـ كاليونان والرومان ـ هو عباد بن سليمان الصميرى المعتزلى وبعض العلماء الذين اتبعوه، فكان عباد يرى «أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع قال: وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمعنى المعين ترجيح من غير مرجح، وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل: ما مسمى أذغاغ؟ وهو بالفارسية الحجر ـ فقال: أجد فيه يبسًا شديدًا وأراه الحجر[2].

وأنكر الجمهور هذه المقالة وقالوا: لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة، ولما صح وضع اللفظ لضدين، كالقرء للحيض والطهر والجون للأبيض والأسود.

---

(١) من أسرار اللغة/ ١٢٦، ١٢٧، ودلالة الألفاظ/ ٥٩.

(٢) المزهر ١/ ٤٧، ط ٣ دار التراث.

وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار خصوصًا إذا قلنا: الواضع هو الله تعالى، فإن ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقت دون وقت، وأما أهل اللغة والعربية فقد كانوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى[1].

أما غير عباد وطائفته من القائلين بثبوت تلك المناسبة فلم يكونوا يرونها ذاتية موجبة كهؤلاء، فالفرق بين مذهبهم ومذهب عباد، أن عبادًا يراها ذاتية موجبة بخلافهم[2].

وممن أغرم بالصلة بين الألفاظ ومعانيها ابن جنى، وقد مهدت أبحاثه فى هذا الموضع الطريق إلى اكتشاف هذا السر الرائع من أسرار العربية.

وقد اجتذبت قضية اللفظ والمعنى انتباه الأقدمين حين ثارت قضية الإعجاز القرآنى، فذهب فريق إلى أن القرآن معجز بمعانيه، بينما الفريق الآخر إلى أنه معجز بألفاظه، عندئذ شرع الجميع فى البحث عن أسباب الجودة والتلاؤم، والقبح والتنافر، ووضعت اللغة كلها تحت مجهر البحث منذ أكثر من عشرة قرون ولسنا فى مجال التأريخ لمراحل الجدل الدينى، ولكن أهمية الربط بين الصوت والمعنى شكلت نمطًا فريدًا فى دراستنا اللغوية حدد بالتالى أنماط الحياة والفكر على مدى قرون طويلة[3].

فقد رسمت الألفاظ والمعانى أنماط الحياة والفكر خلال تلك العصور، فكانت هى الطريق إلى فهم الدين وتحديد المواقف فى مصطرع الجدل والنقاش.

---

(١) المزهر ١/ ٤٧.

(٢) المرجع السابق ١/ ٤٧-٤٨.

(٣) شذرات من فقه اللغة والأصوات / ٧٤.

أهمية الحمل ومعناه

قضية الحمل على المعنى واللفظ فى اللغة العربية قضية ثرية ثراء اللغة نفسها .

ولقد كانت اهتمام اللغويين، وغيرهم، فكثيراً ما نطالع هذا العنوان بنصه، أو نطالع مسائل شتى تندرج تحته فى كتب الأقدمين أمثال: سيبويه، وابن قتيبة، وابن فارس، وغيرهم.

ومن رواد هذا الطرح فى حل التوجيهات اللغوية للأساليب العربية العلامة ابن جنى، فإنه وضع فصلا فى الخصائص سماه «فى الحمل على المعنى»(١).

ويقول عنه: «اعلم أن هذا الشرْج غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن، وفصيح الكلام، منثوراً ومنظومًا، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد فى الجماعة، والجماعة فى الواحد، وفى حمل الثانى على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعًا، وغير ذلك مما تراه بإذن الله» ا.هـ(٢).

ويقول أيضًا: «والحمل على المعنى واسع فى هذه اللغة جداً» ا.هـ(٣).

ثم يقول: «وباب الحمل على المعنى بحر لا ينكش، ولا يفتج، ولا يؤبى، ولا يغرض، ولا يغضغض، وقد رأينا وجهه، ووكلنا الحال إلى قوة النظر وملاطفة التأول» ا.هـ(٤).

---

(١) [الخصائص ٢/ ٤١١:٤٣٥] (٢) الخصائص ٢/ ٤١١.

(٣) السابق ٢/ ٤٢٣.

(٤) السابق ٢/ ٤٣٥.

وابن فارس ـ رحمه الله ـ يذكره فى الصاحبى بعد عدة أبواب تندرج تحت هذا الباب أيضًا، ثم يقول: «باب الحمل: هذا باب يترك حكم ظاهره، لأنه محمول على معناه.. »ا.هـ[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الذين تعرضوا لمثل هذه الألوان فى الحمل على المعنى أو اللفظ لم يحددوا له تعريفًا معينًا، ولعل ذلك كان منهم لتوزع تلك الألوان على أبواب مختلفة لكل منها تعريف خاص.

وعلى كل حال فسوف نجتهد فى وضع ضابط عام يشمل ما نرمى إليه فى هذه الدراسة.

فالحمل فى اللغة يقال: «حمله على ظهر يحمله حملاً وحُملانا»[2]. والمادة تدور على هذا المعنى؛ وذلك بأنه يجعل شيئًا على شىء آخر فكأن الذى يتأول النص، والأسلوب يجعل التالى محمولاً على المقدم، كما يحمل الرجل الشىء على ظهره، وكذلك فى الأحوال التى لا يكون فيها مقدم أو تال كمسائل التضمين مثلاً.

ونستطيع أن نخلص من هذا إلى القول بأن المقصود من الحمل على المعنى أو اللفظ هو:

توجيه كلام ما ـ أو أسلوب ما ـ على وجه يحتمل غيره من المعنى واللفظ، مع تعيين أحدهما للدلالة بقرينة فى السياق داخلة أو خارجة عنه».

وعلى هذا النمط الذى اجتهدنا فى تعريفه فإننا نسير فى شرحنا لتلك المسائل فى ضوء آيات القرآن الكريم بإذن الله تعالى.

والله الموفق والمعين.

---

(١) الصاحبى ١٩٥.

(٢) تاج العروس : حمل

الإفراد والتثنية والجمع

فى اللغة العربية ألفاظ مفردة، وألفاظ مثنى، وألفاظ أخرى جمع، وألفاظ احتملت أن تكون مفردة ومثنى، وألفاظ احتملت أن تكون مفردة وجمع لاعتبارات، والطائفتان الرابعة والخامسة هى التى تهمنا، وقبل أن أبين ذلك لا بد أن أقف مع قضية الحمل على اللفظ والمعنى من خلال ظاهرتى التثنية والجمع بالمقارنة مع اللغات السامية الأخرى.

أولا: ظاهرة التثنية:

موضوع التثنية فى العربية واللغات السامية الأخرى من الموضوعات التى يحسن الوقوف عندها طويلاً، ذلك أن مصادر البحث وجلها كتب النحو واللغة لا تقول إلا الشىء اليسير.

والتثنية أو المثنى ظاهرة لغوية وجدت فى اللغات السامية، واللغة اليونانية وفى السنسكريتية ولها أثار فى اللغات الجرمانية، ولكننا نستطيع أن نقرر أن التثنية ظاهرة سامية أو قل عربية قبل كل شىء[1].

والبحث فى هذا الموضوع يستدعى النظر فى الكلمة «اثنان» من حيث هى من أسماء العدد، ومن حيث هى من أسماء أيام الأسبوع، وهذه الأسماء من أقدم الكلمات فى اللغات السامية، والاثنان اسما لليوم من أيام الأسبوع من الأسماء العربية الإسلامية، فلم يكن العرب فى جاهليتهم يسمون أيامهم بأسام مفردة كما سمتها الفرس غير أنهم

---

(١) فقه اللغة المقارن د/ إبراهيم السامرائى/ ٧٥ طبعة دار العلم للملايين بيروت ط ٢/ ١٩٧٨م.

أفـردوا لكل ثلاث ليال من كـل شهـر من شهـورهم اسـمًا على حـدة مستخرجًا من حال القمر وضوئه فيهما[1].

أما الاثـنان: من أسمـاء العدد فـهى نقطة البدء فى الموضـوع، وهى مـادة ذات صور كـثيـرة فى معـجمـات العربـية، فـمنها الفـعل: ثنى، والاسم: ثِنْى بكسر الثاء وإسكان النون وغير ذلك.

وعلامـة التثـنية تتـردد بين الألف والنون والياء والنون، وقـد يكون النون مـيما، ولم يخـصص سائر اللغـات الساميـة ـ مـا عدا العـربية ـ الألف والنون أو الياء والنون بحـالة إعرابية خاصة، كـما هو الحال فى العربية، فـكتب النحو تقيد المثنى بالألف والنون فى حـالة الرفع والياء والنون فى حالتى النصب والجر[2].

ولو افترضنا أن «للاثنين» اسمًا مفـردًا لم يألفه الاستعمال هو «ثن» وهو ثنائى وربما استند على نصف الحـركة المتـمثلة فى همـزة الوصل ليكون على ثلاثة، ثم حمل عليه الاستعـمال لفظ المؤنث فقيل «اثنتان» أو «ثنتان» والتاء فـيها كالتاء فى بنت وأخت وكلتا، وهذه الـتاء علامة للتأنيث المحمول على التذكير قـياسًا كما حملوا على «ابن» «ابنه» وإن وجدت بنت وهى صاحـبة الأصالة، ولكن النحاة العـرب قالوا: «وأما تاء بنت وأخت وهنت وكلـتا وثنتـان فليـست لمحض التـأنيث بل هى بدل من اللام فى حال التأنيث ولذا سكن ما قبلها»[3].

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى / ٦٣-٦٤، طبعة ساخو.

(٢) فقه اللغة المقارن/ ٨٤.

(٣) شرح الكافية للرضى ص ١٦١.

وفى العربية ألفاظ تدل على معنى «الاثنين» مثل كلمة «زوج» كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾[1]. فكلمة زوج تطلق على الرجل كما تطلق على المرأة كذلك، وهذا يعنى أنها تطلق على المفرد المقترن بآخر، ومن هذه الألفاظ «كلا» للدلالة على المثنى المذكر وقد حمل عليها قياسًا «كلتا» للدلالة على التأنيث كما فى قول الله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[2]، لم يقل: آتتا، وذلك أن «كلتا: ثنتان لا يفرد واحدتهما، وأصله كل كما تقول للثلاثة: «كل» فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع، لا أن يفرد للواحدة شيء فجاز توحيده على مذهب «كل» وتأنيثه جائز للتأنيث الذى ظهر فى كلتا[3].

والنحاة العرب بحثوا فى هذه المادة ولا سيما فى إعرابها فقالوا: إن الألف فى «كلا» علامة إعراب، أو هى دلالة مثيرة إلى الإعراب، ثم قالوا إن الألف فى كلتا للتأنيث وعند آخرين وهم جماعة أهل الكوفة، أن الألف فى «كلا وكلتا» للتثنية، ثم قالوا: ولم يستعمل واحدهما إذ لا إحاطة فى الواحد فلفظهما كلفظ الاثنين سواء، ويجوز للضرورة استعمال الواحد كما فى قول بعضهم:

فى كِلْت رجليَها سُلاَمى واحده كلتاهما مقرونة بزائده[4]

يريد بكلت: كلتا.

---

(١) سورة ق/ ٧. (٢) الكهف/ ٣٣.

(٣) معانى القرآن للفراء ١/ ١٤٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م.

(٤) شرح الكافية للرضى ١/ ٣٢.

وكلا وكلتا اسمان مفردا اللفظ مثنيا المعنى، بدليل الإخبار عنهما بالإفراد تارة مراعاة للفظ وبالتثنية تارة مراعاة للمعنى وقد اجتمع الأمران فى قول الفرزدق:

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

فاعتبر الشاعر معنى كلا وثنى الخبر حيث قال: قد أقلعا واعتبر كذلك لفظ كلا ووحد الخبر حيث قال: «رابى» إلا أن اعتبار اللفظ أكثر وبه جاء القرآن الكريم حيث قال الله: كلتا الجنتين آتت أكلها[1].

والبحث فى هذه الظاهرة اللغوية يؤدى إلى أن نقول: إن المثنى مادة لغوية اختصت بها العربية ولزمتها فى الفصيحة من أقدم العصور حتى الآن، وقد تعدى الأمر هذه الفصيحة إلى الجهات المحلية الدارجة. ولكننا لو فحصنا أقدم النصوص العربية التى يطمأن إلى صحتها ومن هذه نصوص القرآن الكريم، لرأينا أن المثنى لم يكن ثابت القواعد محدود الصورة فى هذه النصوص فهناك تردد وترجح فى صيغة المثنى نفسه، وفى صيغة الفعل الذى أسند إليه فلم يتحمل هذا الفعل ضمير المسند إليه على هيأة التثنية وسنعرض لهذه النصوص لنتبين صحة هذه الدعوى:

قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ وقد تمت المطابقة فى هذه الآية[2].

---

(١) النحو التطبيقى د/ محمد أحمد على سحلول /٨٤-٨٥.

(٢) آل عمران / ١٣.

وقال تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1] ولم يراع فى هذه الآية أن أحد المتعاطفين وهو مسند إليه جمع، وذلك أن الفعل وهو طرف فى الإسناد قد تحمل ضمير التثنية.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ثم قال أيضًا: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[2].

وفى هذه الآية جاء المثنى «أبويه» ثم عقب فى الشق الأخير من الآية التى بعدها بالفعل «خروا» على التثنية ثم أنه لما كان الفعل مسندًا لضمير الجمع جاءت الصفة منصوبة على الحال وهى مجموعة أيضًا، وقال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[3]، ولم تتم المطابقة كما بينا.

والنحوى القديم لا يعدم أن يلتمس لما يراه فى كتاب الله من تأويل وتعليل وتخريج فقد قالوا إن لفظ «كلا» أو «كلتا» مفرد وقد حمل على اللفظ فى هذه الآية كما سبق ووضحنا ذلك، وجاءت قاعدتهم أن الحمل على اللفظ أفصح وأكثر، وقد استعملوا هذه القاعدة فى كثير من الأدوات اللغوية كما فى الاسم الموصول «من» وفى كثير من أسماء الجمع مثل «ركب» و «وفد» ونحوهما.

وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[4] والمطابقة غير حاصلة فى هذه الآية فقد أسند الفعل إلى ضمير الجمع المذكور دون

(١) الأنبياء/ ٣٠ وانظر مجاز القرآن لأبى عبيدة/ ٩.
(٢) يوسف / ٩٩-١٠٠.
(٣) الكهف/ ٣٣، وانظر همع الهوامع للسيوطى ١/ ٤١.
(٤) الحج/ ١٩.

أن يسند إلى ضمير الاثنين وهذا وجه من وجوه الكلام فى الأسلوب القرآنى.

ربما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما يذهب بالواحد إلى الجمع، ألا ترى أنك تخاطب الرجل فتقول: ما أحسنتم ولا أجملتم، وأنت تريده بعينه، ويقول الرجل للفتيا يفتى بها: نحن نقول: كذا وكذا وهو يريد نفسه، ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾[1]، ثم أعاد ذكرهما بالتثنية إذ قال:﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

والحمل على اللفظ والمعنى ظاهر فى قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾[2]، ولم يقل: إن استطعتما ولو كان لكان صوابا، كما قال: «يرسل عليكما» ولم يقل: عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران، فثنى فى عليكما وفى تنتصران للفظ والجمع على المعنى[3].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[4] والمطابقة حاصلة بين المسند والضمير فى كلمة «أيدى» ولكن القول لنا فى كلمة أيدى نفسها فهى جمع ولم تكن مثنى؛ لأن كل شىء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافًا إلى اثنين فصاعداً جمع فقيل: قد هشمت

---

(١) سورة ص / ٢١.

(٢) الرحمن/ ٣٣، وانظر معانى القرآن للفراء ١/ ٣٩١.

(٣) معانى القرآن للفراء ٣/ ١١٦-١١٧.

(٤) المائدة/ ٣٨.

رءوسهما، وملأت ظهورهما وبطونهما ضربًا ومثله قول الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1] وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما تكون عليه الجوارح اثنين فى الإنسان اليدين والرجلين والعينين، فما جرى أكثره على هذا ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب التثنية، وقد يجوز تثنيتهما قال أبو ذؤيب:

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العُبُط التى لا ترقع[2]

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[3] والمطابقة غير حاصلة فى هذه الآية حيث قال: اقتتلوا ولم يقل: اقتتلنا، فقد أسند الفعل إلى ضمير الجمع المذكر ولكن الضمير فى الظرف هو ضمير المثنى.

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾[4].

فقد أسند الفعل «قال» فى هذه الآية إلى ضمير المثنى إشارة لقوله «لها» «وللأرض» ولكن الآية عادت فوضعت هذا المثنى بوصف الجمع المذكر العاقل فى قوله «طائعين»[5].

وفى لغة القرآن كثير من الآيات الأخرى التى جاء فيها المثنى محافظًا على المطابقة التى أشرنا إليها كما عرضناها فى الآيات السالفة الذكر.

---

(١) التحريم/ ٤.

(٢) معانى القرآن للفراء ١/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) الحجرات/ ٩.

(٤) فصلت/ ١١.

(٥) فقه اللغة المقارن / ٨٢-٨٣.

ونستطيع أن نخلص من ذلك إلى أن العربية القديمة حتى زمن القرآن وما بعد ذلك بقليل لم تكن تراعى المثنى من حيث ما يسمي فى نظام تأليف الجمل، وعدم المراعاة ربما جاءت من أن المثنى داخل فى حيز الجمع، وبذلك عومل فى أمثلة كثيرة من القرآن الكريم كما ظهر من عرضنا للآيات.

وقد رأينا أن علامة التثنية تتردد بين الألف والنون والياء والنون وقد يكون النون ميمًا، فكتب النحو تقيد المثنى بالألف والنون فى حالة الرفع والياء والنون فى حالتى النصب والجر، ونريد هنا أن نلقى ضوءًا على هذه الحقيقة اللغوية النحوية و لا بد لنا أن نرجع إلى آيات الله البينات ونقف قليلاً عند قوله: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[1]، وقد ورد فى هذه الآية عدة قراءات بيانها كما يلى:

١ـ إن مخففة، هذان بنون مشددة وهى قراءة ابن كثير.

٢ـ إن بتشديدها، وهذان بنون مخففة وهى قراءة نافع وابن عامر والشنبوذى والحسن.

٣ـ إن مخففة وهذان بنون مخففة وهى قراءة حفص وافقه ابن محيصن[2].

الشرح والتوضيح:

المشهور عند جمهور العرب، أن المثنى يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء، فيقولون: جاء المحمدان، ورأيت المحمدين، ومررت بالمحمدين،

(١) طه/ ٦٣.

(٢) الإتحاف جـ ١، ٢/ ٢٤٨-٢٤٩ بتصرف.

ولكن قبائل بلحارث بن كعب، وخثعم، وزبيد، وكنانة، وبلعنبر وهمذان، وعذرة وبكرة بن وائل، وبعض من ربيعة، يستعملون المثنى بالألف دائمًا، رفعًا ونصبًا وجرًا[1]، فيقولون: جاء أخواك، ورأيت أخواك، ومررت بأخواك، قال أبو النجم الفضل بن قدامة:

واها لريا ثم واها واها   هى المنى لو أننا نلناها

يا ليت عيناها لنا وفاها   بثمن نرضى به مولاها

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا فى المجد غايتاها

وقول هوبر الحارث:

تزود منا بين أذناه طعنة   دعته إلى هابى التراب عقيم[2]

وخرج على هذه اللغة، قوله تعالى: إنَّ هذَاَنِ لساحِران» فى قراءة من شدد النون كنافع وحمزة والكسائى، ويتحدث ابن جنى عن هذه اللهجة فيقول: «سألت خليلا عن الذين قالوا فى : يياءس ياءس، أيدلوا الياء لانفتاح ما قبلها»[3]. وقد علل ابن جنى ذلك بقوله: «أبدلوا ياء أخويك فى لغة غيرهم ممن يقولون بالياء، وهم أكثر العرب، فجعلوا مكانها ألفا فى لغتهم، استخفافًا بالألف»[4]، ولا يبعد عندى أن يكون ما فعلته بلحارث ومن لف لفها من القياس الخاطىء، حيث قاسوا المنصوب والمجرور على المرفوع، وأجروا الثلاثة مجرى واحدًا،

(١) الصاحبى / ٢٩، همع الهوامع للسيوطى ١/ ٤٠.
(٢) الأشمونى ١/ ٧٩، شرح المفصل ٣/ ١٢٨، الهمع ١/ ١٣٣- ١٣٤.
(٣) الخصائص ٢/ ١٤.
(٤) المرجع السابق جـ ٢/ ١٤.

كما لا يبعد عندى أن تكون الألف أصلا فى المثنى فى أوجه الإعراب الثلاثة، ثم خالفوا بالياء فى الجر والنصب للتفريق فيما بعد، يقوى ذلك ويدعمه قول ابن جنى فى هذه اللهجة: أنهم «أبدلوا ياء أخويك فى لغة غيرهم ممن يقولها بالياء.. فأما فى لغتهم، فيبدلوها ألفا ولا غيرها»[1] فإذا كانوا لم ينطقوا قط بالياء، فهذا معناه أنهم مقيمون على اللفظ القديم وهو الألف أما ما أجازه الأخفش فيعد مرحلة تالية لهذه المرحلة وذلك قوله ـ ابن جنى ـ وأجاز أبو الحسن أن يكون كانت العرب قدما تقول: مررت بأخويك وأخواك جميعا إلا أن الياء كانت أقيس للفرق فكثر استعمالها، وأقام الآخرون على الألف»[2].

ويتبين لنا مما سبق أن التزام المثنى للألف والنون أسلوب فى الكلام يمثل لغة قسم كبير من العرب، وهى بذلك مسألة من مسائل اللهجات الإقليمية، ويذكر الدكتور إبراهيم السامرائى أن الياء والنون علامة فى التثنية لغة أيضًا تمثل قبائل معينة، وجهات معينة، غير أنه لم تنص المصادر على وجود شىء من هذه اللغة[3].

وينقل القرطبى قول أبى جعفر النحاس حينما سأل أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية فقال: القول عندى أنه لما كان يقال: «هذا» فى موضع الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد، أجريت التثنية مجرى الواحدة[4].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٤.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦.

(٣) فقه اللغة المقارن/ ٨٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى ٦/ ٤٢٥٩ ط دار الريان للتراث.

وقد اهتمت العربية بالمثنى فشاع فيها الخطاب للمفرد بصيغة المثنى كما فى الشعر كقولهم «خليلى» و«قفا» و«دعا» ومن اهتمام العربية بالمثنى أننا نجد عددا من المصادر ترد مثناة مثل «سعديك» و«حنانيك» و«لبيك» و«حواليك» و«دواليك» وقد وردت مثنيات فى العربية، وهو ما نسميه بالمثنى التغليبى وهو تغليب أحد المتجاورين والمتشابهين على الآخر، فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصدًا إليهما جميعًا، والتغليب يكون تارة للشرف وأحيانًا للشهرة وطورًا للخفة مثل «العمران» لأبى بكر وعمر، «والقمران»، «للشمس والقمر»[1] فيتبين لنا مما سبق أن قضية الحمل على اللفظ والمعنى فى التثنية واضحة من خلال الأمثلة التى عرضناها وهذا ما جرت عليه سنة شعراء العرب من خطاب الاثنين وإرادة المفرد مثل يا خليلى، يا صاحبى ألا ترى أن امرأ القيس فى قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لم يكن يخاطب إلا نفسه؟! ويمكن أن يعد من هذا قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤)﴾[2]، لأن الخطاب لحارس النار على ما يقول معظم المفسرين»[3].

ثانيًا: الإفراد والجمع:

تحرص اللغات على تمييز فكرة الإفراد وفكرة الجمع، ففى الكثرة

---

(١) شرح الكافية للرضى ٢/ ١٧٢.

(٢) سورة ق/ ٢٤.

(٣) من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس ١٥٧ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م.

الغالبة من اللغات مفرد وجمع، ولكنها تتخذ فى هذا المعنى العقلى العام طرائق شتى لتصويره، أو التعبير عنه فمن اللغات ما يميز فى الصيغة بين المفرد وغير المفرد، فتجعل من الصيغ ما يفيد القلة، ومنها ما يفيد الكثرة، نرى كل هذا فى كتب النحاة ونمر به مرور الشاك فى صحته، أو مطابقته للأسلوب العربى، فالقرآن الكريم ملىء بأمثال الآيات: [وهم فى الغرفات آمنون ـ إن المسلمين والمسلمات ـ ثلاثة قروء] مما يبرهن على أن فكرة اختصاص القلة بصيغ والكثرة بصيغ، لم تكن من الظواهر الملتزمة فى اللغة العربية[1].

والجموع فى العربية من المسائل الصعبة، وأن موضوع اختلاف اللهجات فى الأقاليم والقبائل العربية غير متيسر للباحث، غير أننا نستطيع أن نلمح مواد لغوية قديمة جداً احتفظت بها العربية، وهى تدل على اختلاف اللهجات المحلية، ومن هذه المواد مادة الجمع، ولا سيما ما اصطلح عليه علماء اللغة بجموع التكسير، ويعنى هذا أننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع، فالشيخ يجمع على «شيخه» ويجمع على «شيوخ» ويجمع على «أشياخ» والمتبع للأصول العربية يجد شيئًا غريبًا فى هذا الباب فالحِب «بكسر الحاء» وتعنى المحبوب تجمع على «أحباب» و«حِبّان» بكسر الحاء وتشديد الباء، و«حبوب» و«حبية» بكسر الحاء، و«حب» بضم الحاء[2] وربما دل هذا على أن صيغة من هذه الصيغ قد استعملت فى جهة من الجهات عند قوم من الأقوام، فى حين أن جهة

---

(١) المرجع السابق ١٥٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة حبب، وتاج العروس للزبيدى حبب.

أخرى قد ألفت استعمال صيغة أخرى من هذه الصيغ، وكثرة صيغ جموع التكسير فى العربية تسترعى التأمل والنظر، بحيث لا نستطيع أن نفسر ذلك بغير القول بتعدد اللهجات.

وفى هذه الكثرة من صيغ جموع التكسير، ضاع علماء اللغة والنحو الأقدمون، فقد ذكروا أن جمع التكسير ما تغير بناء واحده كرجال وأفراس[1]، ولكنهم جعلوا «ركب» و«وفد» من أسماء الجموع ولو أنهما من راكب ووافد، وما كان مفرده بالتاء التى تشير إلى الواحدة عدوه من أسماء الجنس[2]، وقد ذهب ابن يعيش إلى أن صيغ جموع التكسير أبنية جمع على حسب واحده، فإذا كان الواحد خفيفًا، قليل الحروف، قلت حروف جمعه وحركاته لتكسيره، وإذا ثقل الواحد وكثرت حروفه كثر ما يلحق جمعه[3].

وقد نظر جماعة من اللغويين إلى أن فى الجمع فكرة مؤداها: الزيادة فى المعنى تعتمد على الزيادة فى البناء، وقد يحمل اللفظ على المعنى فيجمع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[4]، لأن المعنى ذهب إلى المنافقين فجمع لذلك، ولو وحد لكان صوابًا[5].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾[6] فإن السماء فى

---

(١) شرح الكافية ٢/ ١٩٠.

(٢) الكتاب لسيبويه ٢/ ٢٠٣.

(٣) شرح المفصل ٥/ ١٥.

(٤) البقرة/ ١٧.

(٥) معانى القرآن للفراء ١/ ١٥.

(٦) البقرة/ ٢٩.

معنى جمع فقال: «فسواهن للمعنى المعروف أنهن سبع سماوات وكذلك الأرض يقع عليها وهي واحدة الجمع، ويقع عليهما التوحيد وهما مجموعتان، قال الله ـ عزّ وجلّ ـ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾ ثم قال «وما بينهما» ولم يقل: بينهن فهذا دليل على ما قلت لك»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾[2] فإن قيل: كيف قال كافر ولم يقل كافرين، فوحد الكافر وقبله جمع، قيل: التقدير: ولا تكونوا أول فريق كافر، وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر به، وحكى سيبويه: هو أظرف فتى وأجمله[3] ويقول الفراء: «ذلك من كلام العرب فصيح جيد في الاسم إذا كان مشتقًا من فعل مثل الفاعل والمفعول، يُراد به ولا تكونوا أول من يكفر فتحذف من ويقوم الفعل مقامها فيؤدى الفعل عن مثل ما أدت «من» عنه من التأنيث والجمع وهو في لفظ توحيد، ولا يجوز في مثله من الكلام أن تقول: أنتم أفضل رجل، ولا أنتما خيررجل، لأن الرجل يثنى ويجمع ويُفرد فيُعرف واحده من جمعه والقائم قد يكون لشيء ولمن فيؤدى عنهما وهو موحد، ألا ترى أنك تقول: الجيش مقبل والجند منهزم، فتوحد الفعل لتوحيده، فإذا صرت إلى الأسماء قلت الجيش رجال والجند رجال ففي هذا تبيان وقد قال الشاعر:

وإِذَا هُمُ طَعِمُوا فَأَلأَمُ طَاعِمٍ ... وإذا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ

فجمعه وتوحيده جائز حسن[4].

(١) المصدر السابق ١/ ٢٥.

(٢) البقرة/ ٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٨٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣-٣٣.

وقال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1].

الأصل فى العربية: بتقبل حسن، ولكن قبول محمول على قوله قبلها قبولا حسنا، يقال: قَبِلْتُ الشيء قَبُولا حسنا، ويجوز قُبُولا إذا رضيته، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾[2] فمن قرأ «قُبُلا» فهو جمع قبيل وقُبُل مثل رغيف ورغف[3]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾[4] الملائكة فى هذا الموضع جبريل ﷺ وحده وذلك جائز فى العربية: أن يخبر عن الواحد بمذهب الجمع/ كما تقول فى الكلام: خرج فلان فى السفن، وإنما خرج فى سفينة واحدة وخرج على البغال، وإنما ركب بغلا واحدًا، وتقول: ممن سمعت هذا الخبر. فيقول من الناس، وإنما سمعه من رجل واحد وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾[5]، وإذا مس الإنسان ضر[6]، ومعناهما واحد وذلك جائز كما قال بعض العلماء فيما لم يقصد فيه قصد واحد بعينه[7]، وقال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ فوحد الرفيق وهو صفة لجمع؛ لأن الرفيق والبريد والرسول تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع فلذلك قال:

---

(١) آل عمران / ٣٧.

(٢) الكهف/ ٥٥.

(٣) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٠١، ت د/ عبد الجليل عبده شلبى طبعة عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٤) آل عمران/ ٣٩.

(٥) الروم / ٣٣.

(٦) الزمر/ ٨.

(٧) معانى القرآن للفراء ١/ ٢١٠.

﴿وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[1] ولا يجوز فى مثله من الكلام أن تقول: حسن أولئك رجلا، ولا قبح أولئك رجلا إنما يجوز أن توحد صفة الجمع إذا كان اسمًا مأخوذًا من فعل ولم يكن اسمًا مصرحًا، مثل رجل وامرأة[2].

وقال بعضهم: لا ينوب الواحد عن الجماعة إلا أن يكون من أسماء الفاعلين، فلو كان «حَسُنَ القوم رجُلاً» لم يجز عنده، ولا فرق بين رفيق ورجل فى هذا المعنى لأن الواحد فى التمييز ينوب عن الجماعة، وكذلك فى المواضع التى لا تكون إلا جماعة نحو قولك هو أحسن فتى وأجمله، المعنى هو أحسن الفتيان وأجملهم وإذا كان الموضع الذى لا يلبس ذكر الواحد فيه فهو ينبىء عن الجماعة كقول الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض، وأما جلدها فصليب

وقال الآخر: فى حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شجينا

يريد فى حلوقكم عظام[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾[4] وهو جمع والعرب تقول: قوم فرادى، وفراد يا هذا فلا يجرونها، شبهت بثلاث ورُباع، وقرأ أبو حيوة «فرادىً» بالتنوين وهى لغة تميم، و«فُرادى» جمع فردان كسكارى جمع سكران، وكسالى جمع كسلان، وقيل: واحده «فَرْد» بجزم الراء» ، و«فرد» بكسرها، و«فرد» بفتحها، و«فريد» والمعنى «جئتمونا واحدًا واحدًا، كل واحد منكم

---

(١) النساء/ ٦٩.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٦٨.

(٣) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٧٣-٧٤.

(٤) الأنعام/ ٩٤.

منفرداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر مما كان يصاحبكم في الغي، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله[1]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾[2]، فوحد اليمين في قوله: «عن اليمين» وجمع الشمائل؛ لأن معنى اليمين وإن كان واحداً الجمع ولو قال: عن الأيمان والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة، وأيضًا فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى، كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم﴾ وكقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النورِ﴾ ولو قال على أسماعهم وإلى الأنوار لجاز، ويجوز أن يكون رد اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الواردون وتَيْم في ذُرا سبأ قَدْ عَضَّ أعناقهم جِلْدُ الجواميس

ولم يقل: جلود وقيل: وحد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم في حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات، فسماها شمائل[3] وكذلك قال الشاعر:

بفي الشامتين الصخر إن كان هدني رزية شِبْلَي مُخْدِرٍ في الضراغم

ولم يقل: بأفواه الشامتين وقال الآخر:

فباست بني عَبْس وأسْتَاه طيّء وباست بني دُودان حَاشا بَنِي نَصْر

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٧٨.

(٢) النحل/ ٤٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٧٢٨.

فجمع ووحد وقال الآخر:

كلوا فى نصف بطنكم تعيشوا فإنَّ زمانكم زَمَنٌ خميصُ

فجاء التوحيد لأن أكثر الكلام يواجه به الواحد فيقال: خذ عن يمينك وعن شمالك لأن المكلَّم واحد والمتكلم كذلك، فكان إذا وحد ذهب إلى واحد من القوم، وإذا جمع فهو الذى لا مسألة فيه وكذلك قوله:

بنى عُقيل ماذِهِ الخفافِقُ المالُ هَدْىٌ والنساء طالق

فقال: طالق؛ لأن أكثر ما يجرى الاستخلاف بين الخصم والخصم فجرى فى الجمع على كثرة فى الأصل ومثله بفى الشامتين وأشباهه[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾[2] وحد الجسد ولم يجمعه وهو عربى، لأن الجسد كقولك شيئًا مجسدًا لأنه مأخوذ من فعل فكفى من الجمع[3].

وجسدًا اسم جنس، ولهذا لم يقل أجسادًا، وقيل لم يقل أجسادًا لأنه أراد وما جعلنا لكل واحد منهم جسدًا[4].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾[5] وفى حرف عبد الله «ومنكم

(١) معانى القرآن للفراء ٢/ ١٠٢، ١٠٣.
(٢) الأنبياء/ ٨.
(٣) معانى القرآن للفراء ٢/ ١٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٤٣١٢.
(٥) غافر/ ٦٧.

من يكون شيوخًا» فوحد فعل مَنْ، ثم رجع إلى الشيوخ فنوى بمن الجمع، ولو قال: شيخًا لتوحيد من فى اللفظ كان صوابًا[1].

وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾[2].

يقول القائل: كيف قال: «على ظهوره»، فأضاف الظهور إلى واحد؟

يقال له: إن ذلك الواحد فى معنى جمع بمنزلة الجند والجيش والجميع فإن قال: فهلا قلت: لتستووا على ظهره، فجعلت الظهر واحدًا إذا أضفته إلى واحده؟

قلت: إن الواحد فيه معنى الجمع، فرددت الظهور إلى المعنى ولم تقل: ظهره، فيكون كالواحد الذى معناه ولفظه واحد، فكذلك تقول: قد كثرت نساء الجند، وقلت: ورفع الجند أعينه ولا تقل عينه، وكذلك كل ما أضفت إليه من الأسماء الموضوعة فأخرجها على الجمع، فإذا أضفت إليه اسمًا فى معنى فعل جاز جمعه وتوحيده مثل قولك: رفع الجند صوته وأصواته أجود، وجاز هذا لأن الفعل لا صورة له فى الاثنين إلا كصورته فى الواحد[3]، وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[4] أراد الماءين: ماء الأرض وماء السماء، ولا يجوز التقاء إلا لاسمين فما زاد ، وإنما جاز فى الماء، لأن الماء يكون جمعًا وواحدًا[5].

---

(١) معانى القرآن للفراء ٣/ ١١.

(٢) الزخرف/ ١٣.

(٣) معانى القرآن للفراء ٣/ ٢٨.

(٤) القمر/ ١٢.

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٠٦.

وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1] قال: الدُبر ولم يقل: الأدبار، لأنه اسم جنس كالدرهم والدينار وكل صواب أن تقول: ضربنا منهم الرءوس والأعين، وضربنا منهم الرأس واليد وهو كما تقول: إنه لكثير الدينار والدرهم تريد الدنانير والدراهم[2] فوحد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى[3]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [4]قيل: من علق، وإنما هى علقة، لأن الإنسان فى معنى جمع، فذهب بالعلق إلى الجمع لمشاكلة رءوس الآيات[5].

وقد حار المحدثون الأوربيون فى صيغ جموع التكسير وطريقة بنائها، فذهب جماعة منهم إلى أن المقطع الذى يدخل حشواً فى المفرد، هو الذى يولد صورة الجمع، ومنهم من اعتبر هذه الصيغ أسماء مفردة تضمنت معنى الجمع، ومنهم من رأى أن الجمع فى اللغات السامية عامة، كلمة مجردة لجنس[6] وصيغ الجموع لا تعتمد على مفردات معروفة ذات وزن معين لا تتعداه إلى غيره، فكلمة «رجال» تصح أن تكون «رجل» وهو كثير، كما أنها جمع «راجل» كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُم فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾[7] وصيغة «فعال» بكسر

---

(١) القمر/ ٤٥.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٦٣١٣.

(٤) العلق/ ٢.

(٥) معانى القرآن للفراء٣/ ٢٧٨.

(٦) فقه اللغة المقارن/ ٩٦.

(٧) البقرة/ ٢٣٩.

الفاء من صيغ جموع التكسير، يكون من مفرداتها «فعيل» مثل «كبير»، و«فعيلة» مثل «كبيرة» و«فَعْل» بفتح الفاء وإسكان العين مثل «سهام» جمع «سهم»، و«فعل» بفتح الفاء والعين، مثل «جبل» و«جبال».

وأرى أن «رجال «جمع «راجل» ربما جاء فى القرينة وهو أنه اتبع بـ «ركبان»، وركبان جمع «راكب» اسم الفاعل من «ركب» فكذلك حمل عليه «رجال»[1].

وفى قراءات القرآن مادة غزيرة لغوية، ففى قوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾[2] قرأ أبو عمرو وابن كثير «فَرُهُن» بضم الراء والهاء، وروى عنهما تخفيف الهاء، «فَرُهُنا» بضم الراء والهاء جمع رهان، فهو جمع جمع، وقرأ عاصم بن أبى النجود «فَرُهْنٌ» بإسكان الهاء، ويروى عن أهل مكة، والباب فى هذا «رِهَان» كما يقال: بغل وبغَال، وكَبْش وكِبَاش، ورُهُن سبيلة أن يكون جمع رهان، مثل كِتَاب وكُتُب، وقيل: هو جمع رَهْن، مثل سَقْف وسُقُف، وحَلْق وحُلُق وشبهه فرهن يجمع على بناءين وهما فُعُل وفِعَال، وقد يكون «رُهُن» جمعا للرهان، كأنه يجمع رَهْن على رِهَان، ثم يجمع رِهان على رُهُن مثل فراش وفُرُش،[3] ورِهَانٌ جيد بالغ يقال: رهنتُ الرهن وأرْهَنْتُه، وأَرْهَنْتُ أقَلُّهما، قال الشاعر فى أرْهنت:

---

(١) فقه اللغة المقارن/ ١٠٠.

(٢) البقرة/ ٢٨٣.

(٣) فقه اللغة المقارن / ١٠٠.

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُم   نَجَوْتُ وأَرْهَنْتُهمُ مَالِكَا

وقال في رَهَنَت: أنشده غير واحد:

فَهَلْ من كاهنٍ أوْ ذي إلـه   إذَا مَا حَانَ من ربّي قُفول

يُرَاهِنُني فَيَرْهَنُني بنيه   وأَرْهنه بَنى بما أَقُولُ[1]

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه إلا إنَاثًا﴾[2] قرأ ابن عباس «إلا وثنا» بفتح الواو والثاء على إفراد اسم الجنس، وقرأ أيضًا «وثنا» بضم الواو والثاء جمع وثن، وقرأ أيضًا «إلا أُثُنًا» كأنه جمع وَثَنًا على وثان، كما تقول: جمل وأجمال، ثم جمع وِثَانًا على وُثُن، تقول: مثال ومُثل، ثم أبدل من الواو همزة لما انضمت، كما قال ـ جل وعزّ ـ: ﴿وإذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ من الوقت، فأنث جمع الجمع، وقرأ النبي ﷺ: «إلا أُنُثًا» جمع أنيث كغدير وغدر وقيل: إنه جمع إناث كثمار وثمر، حكى هذه القراءة عن النبي ﷺ أبو عمرو الداني، قال: وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حيوة،[3] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ للمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّه﴾[4] قرأها مجاهد وعطاء بن أبي رباح «مَسْجد الله» وربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع، وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى الرجل على البرذون فتقول: قد أخذت في ركوب البراذين، وترى الرجل كثير الدراهم فتقول: إنه لكثير الدراهم، فأدى الجماع عن الواحد ، والواحد عن الجميع، وكذلك قول العرب: عليه أخلاق نعلين وأخلاق ثوب أنشد أبو الجراح العقيلي:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) النساء/ ١١٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٩٥٧.

(٤) التوبة/ ١٧.

جـاء الشتـاء وقـميـصي أخـلاقْ شراذمٌ يضـحك منه التِّـواق[1]

وقال تعالى: ﴿حَتَّى يَلِـجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾[2]، جاءت قـراءة ابن عباس «حتى يلح الجُمَّل» بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ومعلوم أن «فُعَّل» بضم الفـاء وفتح العـين وتشديدها صيـغة من صيغ جـموع التكسيـر، وأن مفرد هذه الصـيغة هو «فـاعل» مثل «ركع» فى «راكع» و«سجد» فى ساجـد ومجيء صيغة هذا الجمع لهـذا المفرد غريب، ولا سيمـا عن ابن عباس[3] وهو فى عصر النبـوة وعصر القرآن، وفى هذا إشارة إلى أن هذه الصيغ لم تكن مـقررة، مبنية على قواعـد ثابتة، فهى سمـاعيـة تخضع لمألوف المتكلم فى الاسـتعـمال المحلى، وقـد قرأ ابن مسعود «الجُمَّل» بضـم الجيم وفتح الميم وتشديدها[4].

وفى العربيـة مخلفـات لمواد لغوية قديمـة، فقـد ذكروا أنه ليس فى العـربيـة جمع على «فـعلى» بكسـر الفـاء إلا «الظربى» جـمع ظربان، و«الحجلى» جمع «الحجل» بفتحتين[5]، وقد اختلفوا فى بعض الصيغ، فذهب سيبويه إلى أن «الكليـب» و«المعيز» جمع ، وذهب غيره إلى أنها اسم جمع[6].

وقد تبين لنا أن الجمع لم يتبع نسقًـا معينًا، وإنما هو استعمال الناس

---

(١) معانى القرآن للفراء ١/ ٤٢٦- ٤٢٧.

(٢) الأعراف / ٤٠.

(٣) الكشاف للزمخشرى ٢/ ١٠٣، واللسان مادة / جمل.

(٤) اللسان / جمل.

(٥) المزهر للسيوطى ٢/ ٩٢.

(٦) شرح الشافية للرضى ٢/ ٩٢.

وما درجت عليه ألسنتهم ، فقد جاء قوله تعالى: ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾[1] بتشديد الزاى ومفردها غاز، ومعلوم أن وزن «فُعَّل» بضم الفاء وتشديد العين وفتحها مفرده فاعل كما بينا ولكن اللغويين تأولوا ذلك بالتخريج والحمل[2] وروى عن الزُّهرى أنه قرأه «غُزَىَ» بالتخفيف والغُزَّى جمع منقوص لا يتغير لفظها فى رفع وخفض، واحدهم غاز، كراكع ورُكع، وصائم وصُوّم، ونائم ونُوّم، وشاهد وشُهّد، وغائب وغيَّب، ويجوز فى الجمع غزاة مثل قضاة، وغُزَّاء بالمد مثل ضُرَّاب وصُوّام[3].

ويجمع «غاز» على «غِزىّ» بكسر الغين وتشديد الياء على صيغة «فعُول» بكسر الفاء وهذه الصيغة لم تكن من صيغ الجمع، ذلك أن «فعول» بضم العين كما فى «شهور» هى الصيغة الجارية، ولكن جمع اسم الفاعل من الفعل الناقص على هذه الصيغة يستدعى تغيير الضمة بالكسرة، وذلك لأن جمع «غاز» يكون غزوو» كما أن «جاث» يجمع على «جثوو» ثم قلبت الواو الأخيرة ياء، فصار لدينا «غزوى» و«جثوى»، ثم قلبت الواو ياء لاجتماعها مع الياء كما هو مطرد فى العربية، فصارتا» جثى» و«غزى» بضمتين، فقلبت الضمة الثانية كسرة لمناسبة الياء ثم تعدت الكسرة إلى الحرف الأول للمجانسة فصارتا

---

(١) آل عمران / ١٥٦.

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ١٠٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٤٨٨.

«غِزى» و«جِثى» بكسرتين، وقد قرأت «جثى» بالكسرة كما فى اللسان مادة جثا[1].

وقد تأتى صيغة الجمع لأكثر من صيغة فى المفرد مثل «أكنه» فى قوله تعالى: ﴿أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[2] فمفردها «كنان» و«كن»[3] وقد جمع الند على «أنداد» وهو جمع نديد»[4].

وقد جاء فى كتب اللغة أن عندهم جموعًا لا واحد لها، مثل «العبابيد و«المذاكير» و«الأبابيل»، وصاحب اللسان يذكر للجمع الأخير ثلاثة مفردات هى «أبيل» بتشديد الياء و«أبول» بتشديد الباء وفتحها، و«إبالة» بتشديد الباء وفتحها، و«إبالة» بتشديد الباء أيضًا[5].

والزمخشرى يدخل هذا فى باب «جمع ليس على زنته واحد»[6] ومنهم من اعتبر شيئًا من هذا الباب داخلا فى طائفة المفرد ومن هذا «سراويل» فقد عدها جماعة مفردًا[7].

وقد فرقوا بين ما يأتى للمؤنث من الصيغ وما يأتى منها للمذكر، فلا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل غير أنهم قالوا: «فارس والجمع «فوارس» و«هالك» و«هوالك»[8].

---

(١) اللسان/ جثا.

(٢) الأنعام/ ٢٥.

(٣) المجاز لأبى عبيدة ١/ ١٨٨، اللسان / كن.

(٤) اللسان/ ند.

(٥) اللسان/ أبل.

(٦) المفصل الزمخشرى/ ١٥ ج١ الأوروبية.

(٧) شرح ديوان المتنبى للواحدى / ٧٩٣ الطبعة الأوربية.

(٨) المجاز لأبو عبيدة ١/ ٢٦٥.

وعلى هذا نستطيع أن نحمل «بواسل» جمعًا فى «باسل» وهذا الجمع قد شاع فى أسلوب أدبائنا فى عصرنا الحاضر، ولو أن «باسل» تجمع على «بسل» كما تذهب إلى ذلك كتب اللغة، وعندهم أن فواعل تأتى دائمًا فى غير العاقل كالخواطر والسوابق، والعوامل وهى جموع فى الخاطر والسابق للفرس والعامل للدواب العاملة، على أن هذه الألفاظ الدالة على العاقل من صيغة «فواعل» تشير إلى أن الجمع كان فى « فاعل» مطلقًا فى فترة زمنية لا نستطيع تقديرها»[1].

والنظر فى الأساليب يدل على أن العربية خصت صيغة جمع بمفرد معين فى الدلالة على مادة من المواد، كما خصت صيغة جمع أخر بالمفرد نفسه فى الدلالة على مادة أخرى، فالعين وهى الباصرة قد جمعت فى القرآن على «أعين» وعين الماء قد جمعت فى القرآن نفسه على «عيون».

أما جمعًا التصحيح فالمؤنث منهما ما كان بألف وتاء كما تقول كتب النحو. وملاك الأمر فيه أن الجمع يحصل من الزيادة فى طول الكلمة، أو قل من المقطع الذى يضاف بإشباع الفتحة كما فى «فاطمة» فنقول «فاطمات» إذ ليس للتاء فى «فاطمات» وظيفة فى صيغة الجمع مطلقًا، كما جاء فى قوله تعالى: «كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ»[2] وقد قرئت «جمالات»[3] ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾[4] وقد

(١) فقه اللغة المقارن/ ١١٠.

(٢) المرسلات/ ٣٣.

(٣) الكشاف للزمخشرى / ٦٨٠.

(٤) يوسف/ ١٠.

قرئت «غيلبت»[1]. أما جمع الصحيح المذكر فالتزامه بالواو والنون أو بالياء والنون إشارة إلى أنه أحدث عهداً من جمع التكسير، وذلك لأنه يشير إلى أن اللغة بدأت مرحلة جديدة تخضع فيها للقواعد المقررة متخلصة من الشذوذ وتعدد الألسنة[2]، واتفق معه فى ذلك.

أما مجىء جمع التصحيح بالواو والنون، فهى مسألة تسترعى النظر، فالنحاة يقيدون هذه الصورة بالرفع، وهم على حق فى هذا الزعم، ذلك أنهم نظروا إلى اللغة وقد سلخت من تاريخها قرونًا طوالا فاستقرت فى صورتها العامة على هذه الحال، ولكن البحث والمقارنة يشيران إلى أن مجيئه بالياء والنون يطابق العبرية، ونخلص من هذا إلى أن الواو والنون أو الياء والنون وهما زيادتان لاحقتان للجمع موضوع من موضوعات اللهجة، ومعنى هذا أن جهة من جهات العربية كانت تسير فى جمعها على هذه الصورة، فى حين أن جهة أخرى كانت تسير على التزام الصورة الأخرى، وربما كان من يلتزم طريقًا آخر فيقول بالإمالة[3].

وفى شواهد العربية ما يؤيد هذه الدعوى فقد جاء فى كتب اللغة هذا البيت من الرجز:

نَحْنُ اللذونَ صَبَّحُوا الصَبَاحَا يَوْمَ النَخِيلِ غَارَةً ملحاحا[4]

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٤٧.

(٢) فقه اللغة المقارن/ ١١١.

(٣) المرجع السابق/ ١١٣.

(٤) شرح ألفية بن مالك لابن عقيل ١/ ٧٣.

فاسم الموصول «اللذون» جاء على لغة هذيل فى حالة الرفع أما غيرهم فيقول: «الذين» فى كل الأحوال[1] وربما استطعنا أن نخرج قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصابِئُونَ والنَّصَارَى﴾[2] على هذا الباب، وذلك أن من العرب من كان يلتزم الواو والنون فى الجمع فى جميع الأحوال كما التزمت «الذين» فى كل الأحوال[3].

وهناك ألفاظ احتملت أن تكون مفردة وجمع وجاءت بها القراءات القرآنية ومن هذه الألفاظ:

* عبدنا: من قول قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[4] قرىء على عبادنا فعلى هذه القراءة المراد بالجمع محمد ﷺ وأمته؛ لأن المكذب لمحمد مكذب لأمته[5] ويقول أبو حيان: «وأما قراءة عبدنا يحتمل أن يراد بالمفرد الجمع وتبينه هذه القراءة كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[6] فى قراءة من أفرد، وقرأ عبدنا فيكون إذ ذاك للجنس[7].

* طير: من قول الله تعالى: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾[8] وفى قراءة

---

(١) فقه اللغة المقارن / ١١٣- ١١٤.

(٢) المائدة/ ٦٦.

(٣) فقه اللغة المقارن/ ١١٤.

(٤) البقرة/ ٢٣.

(٥) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ١/ ١٤.

(٦) سورة ص / ٤٥.

(٧) البحر المحيط ١/ ١٠٤.

(٨) آل عمران/ ٤٩.

طائراً بالإفراد وأما الأولى فهو اسم جمع والذى قرأ طائراً نافع ويعقوب[1].

* ومن العرب من يجعل إعراب ما يجمع بالواو والنون فى النون[2]، وقد جاء منه قول سحيم:

دعانى من نجد فإن سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

فعلاج اللغة للمفرد والجمع أمره عجيب وشواهده لا تكاد تقع تحت حصر فقد يحمل الجمع على اللفظ وقد يحمل على المعنى وقد يستعمل المفرد ويراد الجمع أو العكس كما سبق ووضحنا ذلك.

***

(١) المصدر السابق ١/ ١٠٤.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٥/ ١١

التذكير والتأنيث

لا ريب فى أن الإنسان منذ وجوده فكر فى الجنس، وشغل به فآدم عليه السلام لم يخلق وحيداً ذكراً، بل خلق الله سبحانه وتعالى معه أنثى، وتجلت حكمته، وكانت سنته فى الكون وخلوده عن طريق الذكورة والأنوثة، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهذا مطرد فى معظم المخلوقات، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة﴾(١).

وقضية الحمل على اللفظ والمعنى فى التذكير والتأنيث، متشعبة الجوانب، مضطربة الأفكار، متخالفة المعانى، وليس ذلك فى اللغة العربية وحدها بل فى اللغات جميعها، والذى يدعو إلى هذا الاضطراب والتخالف هو عدم إدراك الضبط الدقيق فى جانبين:

أحدهما: جانب لفظى حيث لا يستطاع إدراك النظام اللغوى الدقيق الفاصل بين الذكر والأنثى، فنجد كثيراً من الأسماء لا يوجد بها ما يدل على مسماه من الإناث، كما نلمس أن علامات التأنيث ربما ألحقت بما يسمى به المذكر، ولهذا يكون الالتباس اللفظى بين ما يسمى به المذكر والمؤنث فى كثير من الأسماء.

ثانيهما: جانب معنوى، حيث نلمس اضطرابًا ثانيًا فى تصنيف الأشياء بين التذكير والتأنيث، فلا يوجد فى الجمادات شواهد بيولوجية تدل على نوع جنسها(٢)، وقد بينت تجارب الحياة للإنسان

---

(١) البقرة/ ٣٥.

(٢) التأنيث فى اللغة العربية د/ إبراهيم إبراهيم بركات، ٥، ٦ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ط ١ ١٤٠٨هـ.

النطاق أنه من الواجب التفرقة بين الذكر والأنثى، وتمييزهما، سواء كان هذا فى عالم الإنسان أو عالم الحيوان، وكان من الطبيعى والمنطقى أيضًا أن اللغة حين تعالج فكرة الجنس، تفرق بين المذكر والمؤنث، ولذا نرى الأسماء التى تدل على التأنيث تعامل معاملة مغايرة لتلك التى تدل على التذكير، وتظهر تلك المعاملة اللغوية واضحة جلية فى العناصر اللغوية القديمة، كالضمائر وأسماء الموصول، وأسماء الإشارة والأعداد، بل وفى الأفعال والصفات، فالمؤنث يعود عليه ضمير مغاير لضمير المذكر، ويشار إليه باسم إشارة خاص به، كما نرى له بين الموصولات صيغة معينة، أما الأفعال والصفات فتتطلب علامات خاصة مع المؤنث لا نراها مع المذكر وهكذا نرى اللغات على وجه العموم تعالج ما يدل على التأنيث علاجًا مباينًا لما يدل على التذكير، فتقسم الأسماء إلى طائفتين: تلك التى تعبر عن التأنيث، أو بعبارة أخرى تلك التى تسلم فى الأساليب اللغوية سلوك المؤنث، وطائفة أخرى تعبر عن التذكير أو تسلك سلوك المذكر(١).

يقول ابن يعيش: «اعلم أن المؤنث حقيقى وغير حقيقى، فالمؤنث الحقيقى التأنيث والمذكر الحقيقى التذكيرمعلومان؛ لأنهما محسوسان، وذلك ما كان للمذكر منه فرج خلاف ما فى الأنثى كالرجل والمرأة، وإن شئت أن تقول: ما كان بإزائه ذكر فى الحيوان نحو: امرأة ورجل وناقة وجمل، وذلك يكون خلقه الله تعالى، وغير الحقيقى أمر راجع إلى اللفظ بأن تقرن به علامة التأنيث من غير أن يكون تحته معنى نحو:

(١) من أسرار اللغة / ١٥٠- ١٥٩.

البشرى والذكرى وصحراء وعذراء وغرفة وظلمة وذلك يكون بالاصطلاح ووضع الواضع»[1].

فهذا النص ـ حمل لنا معنى المذكر والمؤنث وزيادة . فيقول فى معناهما: إن المؤنث ما كان بإزائه ذكر فى الحيوان، فللذكر فرج يخالف الأنثى ومثل لهما ـ كما هو واضح ـ امرأة ورجل وناقة وجمل *** مع ملاحظة أن الحيوان يشمل الإنسان وغيره والنص يحمل كذلك نوعين من المذكر والمؤنث:

النوع الأول: مذكر ومؤنث حقيقى ويمكن تعريفه ـ على ضوء النص ما له فرج ، ثم يقول عنهما : إنهما معلومان محسوسان وذلك يكون كما خلقه الله تعالى.

النوع الثانى: مذكر ومؤنث غير حقيقى ـ فيكون مجازيًا ـ وهو كما يقول: أمر راجع إلى اللفظ بأن تقرن به علامة التأنيث، من غير أن يكون تحته معنى، وذلك يكون بالاصطلاح ووضع الواضع ومثل له ببشرى وذكرى وصحراء وعذر اء وغرفة وظلمة كما يلاحظ فى التمثيل للمذكر والمؤنث الحقيقيين أن التاء دخلت على أمثلة للمؤنث مثل : امرأة وناقة، كما دخلت العلامتان الألف المقصورة والألف الممدودة فى غير أمثلة ابن يعيش السابقة فى النص فى مثل : ليلى وشيماء دلالة على الأنثى.

ونجد فى مقابل هذه الألفاظ المؤنثة التى دخلتها التاء مؤنثة لم

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٥/ ٩١-٩٢.

تدخلها التاء، مثل: أتان ورحل، وفى أمثلة أخرى مثل هند وسعاد وزينب إلخ.

والسؤال: أيهما وضع أولا؟ هل الأسماء المؤنثة بلا علامات؟

أم التى بالعلامات؟ أم هما معًا؟

يقول السيوطى: «والأصل فى الفصل بين المذكر والمؤنث الحقيقيين أن يوضع للمذكر لفظ بإزاء لفظ المؤنث كلفظ الرجل مقابل لفظ المرأة، ولفظ الجمل مقابل لفظ الناقة»(١).

وإذا كان هذا الأصل ـ وهو التفريق اللغوى بين الجنسين ـ فإن العلامات مستحدثة يقول السيوطى: «كان الأصل أن يوضع لكل مؤنث لفظ غير لفظ المذكر، كما قالوا: عير وأتان وجدى وعناق، إلى غير ذلك، لكنهم خافوا أن يكثر عليهم الألفاظ، ويطول عليهم الأمر، فاختصروا ذلك بأن أتوا بعلامة فرقوا بها بين المذكر والمؤنث»(٢).

إذن يتضح أن العلامات أمر مستحدث، وأن الأصل فى التفريق بين المذكر والمؤنث اللغة فما قولنا فى هذه التاء على ألفاظ مؤنثة.

قال لنا علماؤنا: يمكن تفسير وجود العلامة وهى التاء على أحد وجهين:

الأول: اعتبار التاء فرقًا بين المذكر والمؤنث.

الثانى: اعتبارها مؤكدة للتأنيث(٣).

---

(١) خصائص لهجة تميم د/ الوافى / ١١٥.

(٢) المصدر السابق/ ١١٥.

(٣) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٥/ ٩٧ ـ ٩٨، وهما من وجوه عشرة.

ولا يمكن قبول هذين الوجهين ـ فى ظل أصل التفريق بين المذكر والمؤنث اللغة ـ ويمكن أن نقول: إن المؤنث ـ هنا ـ بُنِى على هذه التاء من أول أمره شأنه فى ذلك شأن ما بنى على غير هذه التاء.

الصلة بين المذكر والمؤنث والتعبير عنهما:

المذكر والمؤنث كما سبق حقيقيان وغير حقيقيين، فالحقيقيان توجد صلة بينهما وبين ألفاظهما، أما غير الحقيقيين لا نجد صلة عقلية منطقية بين الاسم وما يدل عليه من تذكير أو تأنيث، وقد ترتب على فقدان هذه الصلة أن اهتز المدلول فى أذهان أصحاب اللغة أنفسهم(١).

علامات التأنيث:

علامات التأنيث هى : التاء والألف المقصورة والألف الممدودة، والتاء المكسورة «فعلت» ونون «هن».

وينفى العالم «فنسنك» أن تكون علامات التأنيث كالتاء والألف الممدودة والمقصورة أمارات حقيقية على التأنيث وينتهى إلى أنها ليست أكثر من علامات للمبالغة تفيد التكثير، كعلامة ، وفهامة فى وصف مذكر، وقتلى وجرحى وشهداء وعلماء، فى وصف بعض الجموع، ولعلنا لا نستبعد هذا الرأى إذا ما قارناه بما تسيغه العربية الفصحى من صيغ تفيد التأنيث رغم فقدانها كل أمارة دالة عليه كالمرأة الحامل والمرضع والعاقر والطالق والثاكل والعانس والكاعب والناهد والعروب(٢).

---

(١) البلغة مقدمة المحقق د/ رمضان عبد التواب/ ٤١.

(٢) دراسات فى فقه اللغة د/ صبحى الصالح/ ٨٦، ٨٧، طبعة دار العلم للملايين بيروت الطبعة السابعة ١٩٧٨م.

والمبرد يرى بوضوح أن هذه الصفات الدالة على التأنيث من غير علامات لا تخضع للمنطق، وينبه على ما يلاحظ بطريقين: أحدهما «الإتيان بصفات نعت بها المذكر مع وجود علامات التأنيث كغلام يفعه، ورجل علاّمة ونسّابة وراوية والثانى: التمييز بين ما نعت به على معنى الحديثة أو الفعلية، فمتى أفاد الفعلية لزمته علامة التأنيث حتى يضارع فعله كقولك: أشدنت الظبية فهى مشدنة، وطلقت المرأة فهى طالقة(١).

ويستدل المبرد على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾(٢). فلم يقل: كل مرضع «بل جاء بالتاء المربوطة» «مرضعة» وكأن المبرد بهذه التفرقة الدقيقة يميز الوصف القائم بالنفس ـ لتعويضه الموصوف ـ عن الحدث العارض الذى هو فعل من أفعال الذات(٣).

وينكشف لنا مرة أخرى أن علامات التأنيث ليست ذات بال حين نرى أن الأصل فى الأسماء تجردها من هذه العلامات حتى صرح العلماء بأن كل ما لا يعرف أمذكر هو أم مؤنث فحقه أن يكون مذكر كجبريل وميكال، يضاف إلى ذلك أن الأسماء المذكرة التى فيها ظاهرة التأنيث إنما توصف منها مسمياتها، ويخبر عن ذواتها لا عن أعراضها تقول: قال الخليفة كذا، وقال الراوية، وجاء النسابة، لأنك تخبر عن الذات (٤).

---

(١) الكامل للمبرد ١/ ١٣٧.

(٢) الحج/ ٢.

(٣) دراسات فى فقه اللغة/ ٨٨.

(٤) المصدر السابق/ ٨٩.

التضمين فى اللغة والنحو

لم يسلم منهج الباحثين فى علوم العربية من قيود المنطق وآثار الفلسفة، ذلك أن العقلية الفلسفية قد غزت سائر العلوم، وكان من نتائج ذلك أن تأثر البحث اللغوى والنحوى بهذا المنهج الدخيل على النحو واللغة، وكان تأثيره فى النحو واللغة سلبيًا فقد أحال كثيرًا من الأبواب اللغوية والنحوية مادة جامدة، بعيدة عن الحياة، وبعيدة عن طبيعة اللغة السهلة السمحة، ومن أجل هذا ظهرت فى علوم العربية قواعد وأحكام لم تكن وليدة الاستقراء الشامل الواسع للغة، كقولهم مثلاً: إن الفعل كذا يأتى لازمًا ويأتى متعديًا، وأن الحرف كذا يأتى لمعنى ولا يأتى لغيره وهكذا فإذا فطنوا أن هذا الفعل وذلك الحرف قد أتيا على غير ما ذكروا، فزعوا إلى طريقتهم ومنهجهم يؤولون ويعللون، كأن يقدرون محذوفًا أو يحذفون ما هو مذكور، وليس هذا مجال عرض المشكلات اللغوية والنحوية التى أفسدها المنهج المنطقى فهى كثيرة معروفة للباحثين(١).

تعريف التضمين:

التضمين هو أن تستعمل مادة فعلا كان أو اسمًا أو أداة محل غيره مع قرينة، قولية أو حالية، تشير إلى المعنى الذى استعمل.

وهذا الحد فى التضمين يثير الاستفسار عن المادة المستعملة من حيث الحقيقة والخروج عنها إلى المجاز أو الكناية أو الاستعارة(٢).

---

(١) فقه اللغة المقارن/ ٢١٠.

(٢) السابق/ ٢١٨.

مذاهب العلماء فى حقيقة التضمين:

اختلف الأقدمون فى حقيقة التضمين من حيث كونه حقيقة أو أنه خروج عن الحقيقة إلى غيرها توسعًا ومجازا، ونستطيع أن نخلص إلى مذاهب ثلاثة فى الموضوع:

المذهب الأول: يقرر المذهب الأول أن المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقى مع قطع الصلة بينها وبين الأصل.

المذهب الثانى: يقرر أن المادة قد استخدمت على الوجه المجازى مع القرينة الدالة.

المذهب الثالث: يجمع المذهب الثالث بين المذهبين فيقرر أن المادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز فى آن واحد.

أما المحدثون الذين أقروا التضمين، فقد كانوا يريدون الأخذ به للحاجة إليه ولأن متطلبات العصر تستدعى أن تسعف العربية بمادة ضخمة حتى تساير الحياة الحاضرة ومتطلباتها المعقدة الكثيرة، وقد فعل هذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقال بقياسية التضمين[1].

وبعد هذه الجولة المختصرة حان لنا أن نعيش مع أمثلة التضمين فى القرآن الكريم من خلال الحمل على اللفظ والمعنى، وأول مجال للتضمين هو حروف المعانى أو حروف الصفات على حد تعبير ابن قتيبة[2]، ومن هذه الأمثلة ما يلى:

---

(١) فقه اللغة المقارن/ ٢١٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن / ٤٢٦، أدب الكاتب / ٥٠٢.

الحرف إلى تضمن معنى مع كما جاء فى قول الله تعالى: من أنصارى إلى الله[1] المعنى مع الله فإلى بمعنى مع، كقوله تعالى: «وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُم إِلى أَمْوَالِكُم» أى مع[2].

فيجوز أن تجعل «إلى» موضع «مع» إذا ضممت الشيء إلى الشيء مما لم يكن معه كقول العرب: إن الذود إلى الذود إبل، أى إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلا، فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان «مع» «إلى» ألا ترى أنك تقول: قدم فلان ومعه مال كثير، وكذلك تقول: قدم فلان إلى أهله، ولا تقول مع أهله ومنه قوله تعالى: «وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُم إِلى أَمْوَالِكُم»[3] معناه ولا تضيعوا أموالهم إلى أموالكم»[4].

* الحرف إلى تضمن معنى فى كقوله تعالى: «اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ»[5] أى فى يوم القيامة وفى ذلك إشارة إلى أن إلى المضمنة معنى فى ، ويصح بقاؤها على أصلها ويضمن الفعل معنى يحشر وهو الأقرب، لأن التجوز فى الفعل أكثر من التجوز فى الحرف[6] .

أذلة مضمن معنى عاطفين فى قوله تعالى «أَذِلَّةٍ عَلَ المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَ الكَافِرِينَ»[7] لتعديته بعلى ، والمعنى متواضعين لإخوانهم مغلظين

(١) آل عمران/ ٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٣٣٩، النساء/ ٢
(٣) النساء/ ٢.
(٤) معانى القرآن للفراء ١/ ٢١٨.
(٥) النساء/ ٨٧.
(٦) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ١/ ٢٢١.
(٧) المائدة/ ٥٤.

على الكفار ومن هذا المعنى قوله تعالى: «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم»(١).

* قال تعالى: «إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ»(٢).

معرضين ضمنه معنى غافلين فعداه بعن وإلا فالإعراض بمعنى الترك لا يتعدى بعن»(٣).

* قال تعالى: «فَزَادَتْهُم رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ»(٤) أى كفرًا إلى كفرهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه ضمن الزيادة معنى الضم والمعنى زادتهم كفرًا مضمومًا إلى كفرهم؛ لأن كفرهم يزيد بزيادة جحدهم المنزل(٥).

* الحرف «فى» تضمن معنى «على» فى قول الله تعالى: «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ»(٦).

يصلح «على» فى موضع «فى» ، وإنما صلحت «فى» لأنه يرفع فى الخشبة فى طولها فصلحت «فى»، وصلحت «على» لأنه يرفع فيها فيصير عليها، وقد قال الله «واتَبعُوا مَا تَتْلُو الشيَاطِينُ عَلَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ» ومعناه فى ملك سليمان(٧).

---

(١) حاشية الصاوي ١/ ٢٧٣، الفتح/ ٢٩.

(٢) الأنعام/ ٤.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤.

(٤) التوبة/ ١٢٥.

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٦٤.

(٦) طه/ ٧١.

(٧) معانى القرآن للفراء ٢/ ١٨٦-١٨٧.

* نصر ضمن معنى منع في قول الله تعالى: «وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»[1] أى ومنعناه وفى ذلك إشارة إلى أنه ضمن نصر معنى منع حيث عدى بمن[2].

* أتى ضمن معنى مر في قول الله تعالى: «وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ»[3] والمعنى: مروا وفى ذلك إشارة إلى أنه ضمن أتوا معنى مروا فعداه بعلى وإلا فأتى يتعدى بنفسه أو بعلى والمعنى: مروا عليهم فى أسفارهم إلى الشام[4].

* الحرف «فى» تضمن معنى «من» فى قول الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[5]. وفى قراءة عبد الله يخرج الخبء من السماوات، وصلحت «فى» معنى «من» ، لأنك تقول : لأستخرجن العلم الذى فيكم منكم ثم تحذف أيهما شئت، أعنى «من» و«فى» فيكون المعنى قائمًا على حاله[6].

* حرف «اللام» تضمن معنى «على» فى قول الله تعالى: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ»،[7] وفى قراءة عبد الله وقد سبقت كلمتنا

---

(١) الأنبياء/ ٧٧.

(٢) حاشية الصاوى ٣/ ٧٨.

(٣) الفرقان/ ٤٠.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٩.

(٥) النمل/ ٢٥.

(٦) معانى القرآن للفراء ٢/ ٢٩١.

(٧) الصافات/ ١٧١.

على عبادنا المرسلين و«على» تصلح فى موضع اللام، لأن معناهما يرجع إلى شىء واحد، وكأن المعنى حقت عليهم ولهم، كما قال «عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» ومعناه فى ملك سليمان فكما أوخى بين فى ، وعلى إذا اتفق المعنى فكذلك فعل هذا(١).

* قال تعالى: «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللَّهِ»(٢)، أى عند ذكر وعده، وفى ذلك إشارة إلى أن «إلى» بمعنى «عند» فالتضمين فى الحرف وهو أحد وجهين والآخر: أنه ضمن تلين معنى تسكن فعداه بإلى(٣).

*قال تعالى: «وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ»(٤).

لو كان مكان «على» «عن» صلح أو الباء كما تقول: ما هو بضنين بالغيب(٥).

* الحرف «على» تضمن معنى: من« كقوله تعالى: «إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ»(٦)، أى من الناس، وقال صخر الغى:

متى ما تنكروها تعرفوها علق أقطارها علق نفيث

أى من أقطارها(٧).

---

(١) معانى القرآن للفراء ٢/ ٢٩٥.

(٢) الزمر / ٢٣.

(٣) حاشية الصاوى ٣/ ٣٤٨.

(٤) التكوير/ ٣٤.

(٥) معانى القرآن للفراء ٣/ ٢٤٢- ٢٤٣.

(٦) المطففين/ ٢.

(٧) فقه اللغة المقارن/ ٢١٢.

* حرف الباء تضمن معنى «من» فى قول الله تعالى: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» [1] أى منها، أو ضمن يشرب معنى يلتذ، وفيه إشارة إلى أن التضمين إما فى الحرف أو فى الفعل[2]. نجتزىء بهذه الشواهد فنتبين فيها أن النحويين وعلماء اللغة فى حيرة واضطراب، فهم يرون حرفا قد استعمل فى مكان آخر، ولا بد لهم أن يتخلصوا من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم.

والبصريون يمنعون إنابة الحروف الجارة عن بعض قياسًا، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض، وما أوهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف أو على شذوذ النيابة، والكوفيون يجوزون نيابة بعضها عن بعض قياسًا[3] ولقد اختلف البصريون والكوفيون فى هذا الباب اختلافًا كبيرًا، واختلافهم يشير إلى أن هؤلاء جميعًا لم يستقرئوا كلام العرب استقراء وافيًا ليسجلوا هذه الاستعمالات وليقيدوها بقائليها وبالزمن الذى قيلت فيه، مهتمين بموضوع اللغات الخاصة التى أجازت استعمالاً دون آخر[4].

قال ابن الأنبارى: ذهب الكوفيون إلى أن «من» الجارة يجوز استعمالها فى الزمان والمكان، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز

---

(١) المطففين/ ٢٨.

(٢) حاشية الصاوى ٤/ ٢٨٥.

(٣) مدرسة الكوفة للمخزومى/ ٣٢٦.

(٤) فقه اللغة المقارن/ ٢١٣.

استعمالها فى الزمان، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنه يجوز استعمال «من» فى الزمان أنه قد جاء ذلك فى كتاب الله تعالى وكلام العرب قال الله تعالى: «لَمَسْجِدٌ أُسِسَ عَلَى التَقْوى ' مِنْ أَولِ يَوْمٍ أَحَقُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ»(١) وقال زهير:

لمن الديار بقنة الحجر أقرن من حججٍ ومن دهر

فدل على أنه جائز وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: أجمعنا على أن «من» فى المكان نظير «مذ» فى الزمان؛ لأن من وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى المكان، كما أن مذ قد وضعت لتدل على ابتداء الغاية فى الزمان، ألا ترى أنك تقول: ما رأيته مذ يوم الجمعة، فيكون المعنى إن ابتداء الوقت الذى انقطعت فيه الرؤية يوم الجمعة، كما تقول: ما سرت من بغداد، فيكون المعنى: ما ابتدأت بالسير من هذا المكان، فكما لا يجوز أن تقول ما رأيته من يوم الجمعة، لا يجوز أن يقول: ما سرت مذ بغداد»(٢).

وهذا الخلاف والجدل يظهر أن الكوفيين أسد رأيًا وأصوب منهجًا، ذلك أنهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم، وهذا وجه علمى صائب، أما البصريون فإنهم تمسكوا بجدل وأسلوب منطقى واعتمدوا على استعمالات اصطنعوها هم أنفسهم ولم يعتمدوا على أمثلة مستقرأة فى الثابت من النصوص والاستعمالات(٣).

---

(١) التوبة/ ١٠٨.

(٢) الإنصاف فى مسائل الخلاف / ٢٢٨.

(٣) فقه اللغة المقارن/ ٢١٤.

وقد استمر الكوفيون على مذهبهم فأنابوا فعلا عن فعل آخر على سبيل التضمين وهو موضوع يكشف أن علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيدوها ، ومن ذلك إن وجدوا شيئًا خرج عما قرروه من قواعد وضوابط احتالوا عليه بوسيلة من وسائلهم ولذلك قالوا بالتضمين.

قال الزمخشرى: «ومن شأنهم أن يضمنوا الفعل معنى آخر فيجروه مجراه ويستعملوه استعماله مع إرادة معنى المتضمن قال والغرض فى التضمين: إعطاء مجموع معنيين، وذلك أولى من إعطاء معنى، ألا ترى كيف رجع معنى «وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم»(١) إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم»(٢).

ونلتمس من هذا أن حقيقة التضمين عند الزمخشرى قائمة على أساس ضعيف، إذ كيف يجوز أن يتضمن الفعل فى جملة واحدة معنيين.

والسيوطى يورد أقوالا متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الأقدمين إزاء الاستعمالات والأساليب، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على حقيقة التضمين وطريقته، فقد نقل عن ابن جنى : «واعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع موقع أحد الحرفين موقع صاحبة إيذانًا بأن الفعل فى معنى ذلك الآخر، فذلك جيء معه بالحرف المعتاد على ما هو فى معناه وذلك

(١) الكهف/ ٢٨.

(٢) فقه اللغة المقارن/ ٢١٥.

كقوله تعالى: «أُحِلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُم»(١)، وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الإفضاء وكنت تعدى أفضيت بـ «إلى» كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بالحرف «إلى» مع الرفث إيذانًا وإشعاراً أنه بمعناه(٢)، وذهب ابن هشام إلى أبعد من هذا، إذ قال: «وزعم قوم من المتأخرين منهم خطاب المارديني أنه يجوز تضمين الفعل المتعدى لواحد معنى «صير» ويكون من باب «ظن» فأجاز حفرت وسط الدار بئراً» أى صيرت وقد أجاز بنيت الدار مسجداً » وقطعت الثوب قميصًا، وقطعت الجلد نعلاً، وجعل منه قول أى الطيب:

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لونى كما صبغ اللجين العسجدا»(٣)

ويتضح لنا مما سبق أن مواضع التضمين واسعة، وهذا الاتساع لا يدل على سعة البحث فى الموضوع، أو أنهم تعمقوا فى المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعا وإنما يدل على حيرتهم فى البحث عن المعانى والأساليب، وربما كشف عن جمودهم ووقوفهم عند استعمالات لا يتعدونها إلى غيرها، وما خلا هذه الاستعمالات فهو بين أن يكون محمولا على الخروج والخطأ والتجاوز، أو أنه داخل فى باب التضمين إن لم يجدوا وجهًا إلى تخطئته وخروجه كأن يكون من كلام الله، كقوله تعالى: «أَفَلَمْ يَيأَسِ الَّذِينَ آمَنوا»(٤): وقد ذكر

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ١/ ١٠١، البقرة/ ١٨٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٠٤.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٠٣.

(٤) الرعد/ ٣١.

المفسرون أن معناه : أفلم يعلم وقد قالوا: إنهما لغة نخع وهوازن، وقال سحيم بن وثيل اليرعوبى:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَأسِرُونِنِى   أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ابنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

وقد روى «ألم تعلموا» على الوجه الصحيح، كما أن ابن عباس قد قرأ «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتج من زعم أنه الصواب فى التلاوة وهو باطل عن ابن عباس، لأن مجاهدا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس، ثم إن معناه: أفلم يتبين فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتى بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا، وأما سقوطه يبطل القرآن ولزوم أصحابه البهتان(١).

وينجم عن هذا أنه لا بد أن تؤرخ الألفاظ وتقيد بعصورها وبقائليها حاسبين للأقاليم والمجتمعات حسابها فى الاستعمالات وما شاع بينهما من فنون القول، وبهذا تفيد المعجمية العربية فائدة جليلة، فيعاد بناء المعجمات المطولة على أساس جيد، بمراعاة الظروف التاريخية وتطورها وانعكاس هذه الظروف المتطورة فى المادة اللغوية ومن هنا تأتى ضرورة القيام بمعجم تاريخى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٥٤٩- ٣٥٥٠.

خاتمة البحث

الحمد لله فى البدء والختام والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام، صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه والتابعين.

وبعد

فقد انتهيت بحمد الله من كتابة : «من صور الحمل على اللفظ والمعنى فى القرآن الكريم ووقفت على النتائج الآتية:

ـ صنع القرآن الكريم اللغة الجديدة، بين عشية وضحاها، من واقع ما كان يتحدث به الناس فى حياتهم، إذ فوجىء الناس ـ ذات صباح ـ على قرآن يتلى عليهم فيه من الدلالات والاشتقاقات والتراكيب الجديدة، ما لم يخطر لهم على بال، فى نظم قرآنى فريد، تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا.

ـ اجتذبت قضية اللفظ والمعنى انتباه الأقدمين حين ثارت قضية الإعجاز القرآنى فذهب فريق إلى أن القرآن معجز بمعانيه، بينما الفريق الآخر إلى أنه معجز بألفاظه، عندئذ شرع الجميع فى البحث عن أسباب الجودة والتلاؤم والقبح والتنافر، ووضعت اللغة كلها تحت مجهر البحث، ولكن أهمية الربط بين اللفظ والمعنى شكلت نمطًا فريدًا فى دراستنا اللغوية.

ـ اهتمت اللغة العربية بالمثنى فشاع فيها الخطاب للمفرد بصيغة المثنى كما فى الشعر كقولهم «خليلى»، ويعد من هذا قوله تعالى:

«أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» لأن الخطاب لحارس النار على ما يقول معظم المفسرين.

* علاج اللغة للمفرد والجمع أمره عجيب، وشواهده لا تكاد تقع تحت حصر، فقد يحمل الجمع على اللفظ، وقد يحمل على المعنى كما هو واضح فى ثنايا البحث.

* قضية الحمل على اللفظ والمعنى فى التذكير والتأنيث متشعبة الجوانب، مضطربة الأفكار، متخالفة المعانى، وليس ذلك فى اللغة العربية وحدها بل فى اللغات جميعًا بالإضافة إلى نتائج أخرى ذكرت فى ثنايا البحث، والله أعلم، وصلِ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

د/ رمضان محمود محمد محمد

مراجع البحث

أولا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر

١ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر المسمى «منتهى الأماني والمسرات فى علوم القراءات للشيخ أحمد محمد البنا تحقيق د/ شعبان محمد إسماعيل ط ١ عالم الكتب بيروت لبنان ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى نشره سخاو فى ليبزج سنة ١٩٧٨م.

٣ـ أدب الكاتب لابن قتيبة المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٥٥هـ.

٤ـ الأشباه والنظائر للسيوطى طبعة حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩هـ.

٥ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف لعبد الرحمن بن محمد الأنبارى ط/ ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ومطبعة الاستقامة ١٣٦٤هـ.

٦ـ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى مكتبة ومطابع النصر الحديث الرياض ١٤٠٠هـ.

٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الزبيدى المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦هـ ط بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٨ـ التأنيث فى اللغة العربية د/ إبراهيم إبراهيم بركات ط ١ دار الوفاء ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٨م.

١٠ـ التطور الدلالى بين لغة الشعر ولغة القرآن/ عودة خليل أبو عوده ط/ مكتبة المنار ـ الأردن ـ الزرقاء الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١١ـ تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن طبعة دار الريان للتراث.

١٢ـ حاشية الصاوى على الجلالين/ مصطفى البابى الحلبى.

١٣ـ الحيوان للجاحظ طبعة السعادة ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م.

١٤ـ الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى ت/ محمد على النجار القاهرة ١٩٥٢م ـ ١٩٥٦م.

١٥ـ خصائص لهجة تميم د/ الموافى الرفاعى البيلى ط ١ ـ ١٣٠٤هـ ١٩٨٣م.

١٦ـ دراسات فى علم اللغة د/ كمال محمد بشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

١٧ـ دراسات فى فقه اللغة د/ صبحى الصالح دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٣م.

١٨ـ دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ط ٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.

١٩ـ شذرات من فقه اللغة والأصوات د/ عبد الحليم محمد عبد الحليم، دار الطباعة المحمدية الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٠ـ شرح الشافية للرضى ت/ محمد نور الحسن وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
٢١ـ شرح الكافية للرضى المطبعة العامرية ١٢٧٥هـ.
٢٢ـ شرح المفصل لابن يعيش مكتبة المتنبى القاهرة بدون تاريخ.
٢٣ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ت/ أحمد محمد شاكر ط دار المعارف سنة ١٩٦٦م.
٢٤ـ الصاحبى لابن فارس ت/ السيد أحمد صقر/ مطبعة عيسى البابى الحلبى القاهرة بدون تاريخ.
٢٥ـ عبد القاهر الجرجانى بلاغته ونقده د/ أحمد مطلوب وكالة المطبوعات الكويت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
٢٦ـ العربية خصائصها وسماتها د/ عبد الغفار هلال مطبعة الجبلاوى الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٢٧ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى ت/ محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ط ١٩٥٥م.
٢٨ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لأبى سليمان بن عمر بن منصور المشهور بالجمل مطبعة عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ.
٢٩ـ فقه اللغة د/ محمد المبارك ط جامعة دمشق ١٣٧٩هـ.
٣٠ـ فقه اللغة المقارن د/ إبراهيم السامرائى طبعة دار العلم للملايين ط ٢ ١٩٧٨م.

٣١ـ في اللهجات العربية د/ إبراهيم أنيس طبعة/ ٥ مكتبة الأنجلو المصرية بدون تاريخ.
٣٢ـ الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي بدون تاريخ.
٣٣ـ الكتاب لسيبويه ت أ/ عبد السلام هارون ط ٣ الخانجي القاهرة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٣٤ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ط ١ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣هـ.
٣٥ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب ت د/ محيي الدين رمضان ط ٤ مؤسسة الرسالة/ بيروت ـ لبنان ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٣٦ـ لسان العرب لابن منظور ط/ دار المعارف القاهرة بدون تاريخ.
٣٧ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة / ت فؤاد سزكين القاهرة ١٩٥٥م.
٣٨ـ مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه مكتبة المتنبي بدون تاريخ ونشره برجشتراسر بمصر ١٩٣٤م.
٣٩ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو د/ مهدي المخزومي ط/ مصطفى الحلبي ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.
٤٠ـ المذكر والمؤنث لابن القستري ت د/ أحمد عبد المجيد هريدي ط١ الخانجي / القاهرة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٤١ـ المذكر والمؤنث للفراء ت/ د رمضان عبد التواب مكتبة التراث القاهرة/ ١٩٧٥م.

٤٢ـ المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ت/ محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط ٣ دار التراث القاهرة بدون تاريخ.

٤٣ـ معانى القرآن وإعرابه للزجاج ت د/ عبد الجليل عبده شلبى ط/ عالم الكتب ط ١ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٤ـ معانى القرآن للفراء ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م.

٤٥ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وضع محمد فؤاد عبد الباقى ط ١ دار الحديث القاهرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤٦ـ من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس ط ٧ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٥م.

٤٧ـ النحو التطبيقى د/ محمد أحمد على سحلول، دار الطباعة المحمدية الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

٤٨ـ النقد المنهجى عند العرب، ومنهج البحث فى الأدب واللغة للانسون ومايليه ترجمة د/ محمد مندور مطبعة نهضة مصر ١٩٦٩م.

٤٩ـ همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع للسيوطى ت أ/ عبد السلام هارون د/ عبد العال سالم مكرم ١٩٧٥م ـ ١٣٩٤هـ دار البحوث العلمية بالكويت.

***